تقديم السلسلة

يزخر تراث مصر الفلسفى بصفحات هامة قدمها أعلامه عبر التاريخ الحضارى الطويل لمصرنا الغالية. ولما كان تراثنا ملكنا وليس ملكا لأحد غيرنا، ولما كنا بالضرورة أقدر على إبرازه ونفض الغبار عنه وتقديمه للأجيال الجديدة فى مصر والعالم، فلا ينبغى أن نتوانى لحظة عن القيام بهذه المهمة القومية.

وأعتبر هذه بالفعل مهمة قومية نظرا لما درجنا عليه من إهمال واضح لهذا التراث بأشكاله المختلفة وخاصة فى مجال الدراسات الفلسفية. والحقيقة أن هذا الإهمال قد تسبب بشكل أو بآخر فى شيوع عدم الانتماء بين الأجيال الجديدة، وقد تسبب من جانب آخر فى هذه الهجمات المتتالية من قبل أعداء مصر فى كل مكان على تاريخها وأعلامها فأصبح مجالاً للنهب وللقيل والقال وأصبح كل من هب ودب يدعى أنه صانع المنجز الحضارى المصرى. وليس ببعيد ما يدعيه اليهود هذه الأيام من أنهم صانعو الحضارة المصرية القديمة وبناة الأهرام وطاردو الهكسوس.. إلخ!!

ولا يخفى علينا أن الدور الرائد والأهم فى الاهتمام بتراثنا الفكرى خاصة والحضارى عامة كان ولا يزال للعلماء والباحثين الغربيين. وليس بخاف على أحد أن هذا الاهتمام رغم كل ما فيه من جدية وجهد علمى رصين ورائد ليس خال من الأغراض السياسية

أو الأيدلوجية أو الدعائية. وفى اعتقادى أن جهدنا فى هذا المجال ينبغى أن يتجاوز ردود الأفعال إلى الأفعال، وينبغى أن يتجاوز محاولات الرد على المقولات الزائفة التى يشيعها ويروج لها الأخرون عن تراثنا وحضارتنا، إلى محاولة تقديم هذا التراث فى مختلف المجالات بروح مصرية وبجهد مصرى وبالطبع فليس أقدر على إبراز وتقديم درر ما فى تراث حضارى، أكثر من أصحابه أنفسهم.

ولما كنت عاشقا لمصر ولتراثها الحضارى عبر العصور، ولما كان تخصصى هو الفلسفة عامة والفلسفة القديمة على وجه الخصوص، فقد آليت على نفسى أن أقوم بجهد ما فى هذا المجال. وهو ان قل يشكل لبنة من لبنات تدعيم الانتماء إلى هذا التراث الحضارى العظيم لمصرنا الحبيبة. وهو وان تواضع يساهم فى إلقاء الضوء على مجال لازال بكرا فى اهتماماتنا القومية حيث إن الاهتمام بتاريخ مصر، وبآثارها وبإنجازاتها فى مجالات السياسة والاقتصاد والعلوم قد بدأ منذ مطلع عصر نهضتنا الحديثة فى القرن التاسع عشر، بينما لا نزال نخطوا خطواتنا الأولى فى ميدان الاهتمام بتاريخ الفلسفة فى مصر رغم أن إسهامات المصريين فى تاريخ الفكر الفلسفى لا تقل بأى حال عن اسهامات العديد من شعوب العالم سواء فى الغرب أو فى الشرق.

والحقيقة أن المرء تتملكه الدهشة حينما يجد اهتمام الهنود واليابانيين والصينيين وغيرهم من شعوب العالم بإبراز دورهم الفلسفى عبر العصور، بينما نحن لا نزال نتصور خطأ أن إسهامنا وإسهام أجدادنا فى هذا الميدان يتضاءل لحد العدم!!

وقد آن آوان رفض هذا الشعور بالدونية والضآلة لأن الحقيقة أن تراثنا زاخر بالإنجازات الفلسفية فى مختلف العصور، لكننا أهملناه وأهملنا التركيز عليه وعلى دراسته مفضلين عليه الاهتمام بدراسة الفلسفات الغربية. ولا أدل على هذا الإهمال من النظر فى مناهج أقسام الفلسفة بالجامعات المصرية حيث لا تجد من بينها أى دراسة متخصصة لتراث مصر الفلسفى المهم إلا عبر مواد الفلسفة الإسلامية، أو الفكر الشرقى القديم أو الفكر العربى المعاصر، والأمر فى هذه الحالة بالطبع متوقف على اهتمامات الأستاذ الذى يدرس هذه المادة أو تلك! فربما - وهذا هو الأغلب بالفعل - لا يشير من قريب أو من بعيد لهذا التراث الفلسفى المصرى!!

وبالطبع فقد يقول القائل هنا: أين هذا التراث الفلسفى المصرى الذى ننادى بالاهتمام به؟! ولهذا القائل أقول: إن تراث مصر الفلسفى يبدأ من «النص المنفى» فى التراث الفلسفى لمصر القديمة ذلك النص الذى يرسم فيه مفكرو مصر لأول مرة تصورهم للإله الخالق المبدع للوجود، وتصورهم لأنه وهو يبدع الوجود أبدع معه

الخير والشر ونصح بنى البشر بأن يسلكوا طريق الخير ويبتعدوا عن طريق الشر. فى هذا النص البديع يبزغ فجر الاهتمام بتفسير الوجود، ويبزغ فى نفس الوقت فجر الضمير على حد تعبير برستيد عالم المصريات الشهير. ومنذ هذا التاريخ تتواصل الأجيال فى مصر عبر العصور فى تقديم ابداعاتها الفكرية فمن بتاح حتب وايبوور وأمنموبى واخناتون فى مصر القديمة، إلى فيلون وكلمنت وأوريجين وأفلوطين فى مصر فى عصر الإسكندرية، إلى علماء وفلاسفة مصر فى العصرين المسيحى والإسلامى إلى العصر الحديث. كل جيل يقدم ما استطاعه فى ضوء العصر الذى عاشه وفى ضوء الظروف التى واكبت هذا العصر. وأستطيع أن أجزم بأنه لم يكن إنجاز المفكر المصرى فى أى عصر بأقل من إنجازات غيره من مفكرى العالم فى ذات العصر.

كل ما هنالك أن علينا نحن واجب العودة إلى هذا التراث الضخم وإعادة قراءته وتحليله والكشف عن كوامنه وإبرازها للأجيال الحالية والقادمة لعلهم يفخرون بها ويواصلون نفس طريق الإبداع الذى ما انقطع يوما، ولكنه إن خبا زمنا فالنار دائما تحت الرماد. والابداع دائما موجود وإن غفلت عنه العيون وغطت عليه توافه الأعمال ومصالح الساسة والغزاة!!

يا أبناء مصر وبناتها فى القرن الواحد والعشرين ومع مطلع

الألفية السابعة من تاريخكم الممتد العظيم: هو تراثكم الفكرى فاهتموا به وبدراسته، هو زادكم الحقيقى فتزودوا به لمجابهة تحديات الحاضر والمستقبل، فمن لم يستفد من تراثه وهو بهذا الثراء والغنى فقد ضل الطريق، ومن لم يعرف ماضيه حق المعرفة فلا حاضر له ولا مستقبل!

يا أبناء مصر وبناتها فى هذا الزمن والزمن القادم، لقد كانت مصر دائما وعبر التاريخ رائدة فى كل مجالات الحياه إلا فى الفترات التى عانت فيها من الغزاة والمستعمرين، فكونوا أنتم أيضا رواداً للإبداع والتجديد فى عصركم وفى زمنكم. وهذا التجديد وذلك الإبداع لا يكون إلا بربط حاضركم بماضيكم، وبالتطلع الجاد إلى المستقبل. والقفز إلى الأمام يحتاج دائما إلى العودة إلى الوراء. وهذه السلسلة التى نقدمها لكم فى دراسة أعلام التراث الفلسفى المصرى تشكل الجانب الأهم من الوعى بريادة الماضى، لتكون زاداً نتزود به فى التعامل مع متطلبات الحاضر ودافعًا للإبداع والريادة فى المستقبل.

د.مصطفى النشار

مدينة نصر - القاهرة

فى ١٠ فبراير ٢٠٠١

الموافق: ١٦ من ذى القعدة ١٤٢١هـ

تصدير

يعد ذو النون المصرى من طلائع مفكرى مصر فى العصر الإسلامى حيث عاش حياته ما بين القرنين الثانى والثالث الهجريين، الثامن والتاسع الميلاديين. وإذا كانت شهرته قد ارتبطت بريادته لتيار التصوف الإسلامى المؤسس على القرآن والسنة والخالى من أى شبهة من شبهات التطرف التى وجدناها سواء لدى أصحاب الشطحات أمثال أبو يزيد البسطامى والحلاج، أو لدى دعاة التصوف من مدعى الدروشة من الدخلاء على التصوف بصورته الرائدة النقية الداعمة للعمل الإيجابى استنادا على النصوص الدينية المعتدلة، أقول إذا كانت شهرته قد ارتبطت بزهده وتصوفه وهو ما ركزنا عليه فى هذا الكتاب فإن هذا لا يمنعنا من التنبيه إلى أنه كان شخصية فلسفية موسوعية اهتم بالعلم واشتغل بالكيمياء والطب كما كان فقيهًا وشاعراً وتلك كانت سمة من سمات عصره.

ويأتى اهتمامى به من كونه أحد مفكرى مصر المعتدلين الرواد الذين لم يلقوا اهتماما كافيا من الباحثين والدارسين للفكر المصرى عامة والصوفى خاصة. وقد جاء هذا الاهتمام مصادفة حينما طُلب إلىَّ أن أكتب مادة عنه فى موسوعة أعلام العرب والمسلمين التى

تعدها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ودهشت حين لم أجد عنه أى دراسات مستقلة متخصصة رغم ريادته ورغم أهميته باستثناء كتاب عام أعده السيد أبو ضيف المدنى وأصدرته دار الشروق، والعجيب أنه قد خلت معظم الكتب التى تؤرخ للتصوف الإسلامى من الحديث عنه، أما الكتب التى تحدثت عنه فقد اكتفت ببضعة سطور عن زهده وتصوفه.

وقد دفعنى ذلك إلى الرجوع إلى المصادر من أمهات الكتب التى تؤرخ لطبقات العلماء فى التراث العربى - الإسلامى. وقد وجدت أن أهمها بالنسبة للصوفية وتاريخهم هو كتاب «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» للحافظ الأصفهانى. وكم كانت سعادتى حينما وجدت أن مؤلفه قد جمع كل الروايات التى تناقلها الرواة عن أقواله ومواقفه الصوفية.

وهنا وجدت أن من المهم جداً تصنيف هذه الأقوال والمواقف وإعادة نشرها حتى تكون مادة خصبة أمام الدارسين والباحثين فى التصوف الإسلامى لعلّهم يهتمون بتحليلها وتفسيرها ووضعها فى مكانها المناسب من ريادة وتأسيس للتيار الصوفى من تيارات الفكر الفلسفى الإسلامى التى انقسمت إلى أربع هى علم الكلام، وعلم الأصول، والفلسفة والتصوف.

لقد كان ذو النون سباقًا فى وضع أسس التصوف الإسلامى وبيان معانى أحواله ومقاماته. لقد وضع ملامح الطريق الصوفى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى؛ فبين طرق المعرفة عامة وأوضح ملامح المعرفة الصوفية، الكشفية على وجه الخصوص، وعرف الخوف، والتوكل، والصبر، والزهد، والحياء، والمحبة، واليقين، والشكر، وحدد معنى الذكر والإخلاص لله وبين كيف يكون القرب من الله وكيف يدرك المرء حقيقة التوحيد وحقيقة الدنيا وحقيقة الذنب وحقيقة التوكل، وكيف يتذوق المريد حلاوة الحب الإلهى ويدرك شواهده وعلاماته.

إننى لم أقدم فى هذا الكتاب إلا أمرين اثنين: هما أولاً: دراسة مبسطة عن ذى النون:حياته ومذهبه الصوفى، وثانيًا: تصنيف تلك النصوص الثرية بمعانيها القوية فى مبناها، الغنية فى دلالاتها.

ولما كنت من غير المتخصصين فى التصوف الإسلامى رغم حبى الشديد له حيث كان من أهم ما قدمته من أبحاث فى السنة النهائية من دراستى الجامعية بحث بعنوان «الكشف كمنهج للمعرفة الصوفية». ولم آسف لشىء قدر أسفى على فقدان هذا البحث الذى نال اهتمام أستاذى الجليل أ.د. أبو الوفا التفتازانى وهو من هو فى مجال الدراسات الصوفية فى مصر والعالم العربى! أقول لما كنت من غير

المتخصصين فى التصوف الإسلامى فقد أثرت أن أترك أمر تحليل هذه النصوص ودراستها الدراسة الصوفية المتخصصة للباحثين فى هذا المجال الهام من مجالات الفكر الإسلامى.

وكلى أمل فى أن تلقى هذه النصوص وهذا الكتاب عن ذى النون اهتمامهم ويكون دافعا لمزيد من الدراسات حول هذا الصوفى المصرى الجليل.